تملكه النبتة والحشرة والبهيمة. نملك الفكر والخيال والإرادة. وهذه إن تقيدت بنظام فهو غير نظام الفصول الأربعة. وهو نظام ما نزال قاصرين عن فهم غاياته ومداه. فكيف بنا نقيم له الحدود؟

قد يهرم أحدنا فتنشلّ أعصابه ويغيم بصره ويثقل سمعه وتتقاعد أكثر أعضائه عن القيام بوظائفها ويبقى، رغم ذلك، جامح الخيال صلب الإرادة، فتيّ الفكر والقلب. وقد يكون الآخر من عمره في ميعة الشباب ويكون فكره في المهد، وخياله في الأكمام، وإرادته في الشيخوخة. وليس في الناس اثنان تتساوى فصول عمريهما في كلّ معانيها وإن تساوت في مداها وفي مظاهرها الخارجيّة. لذلك يصعب التحدّث عن فصول العمر إلّا تحدّثاً إجماليّاً، إذا هو لم ينطبق على جميع الناس من كلّ الوجوه انطبق على أكثر الناس من أكثر الوجوه.

في خريف العمر تكثر الظلال وتمتدّ. فما من حركة أتيناها أو شهوة اشتهيناها أو نيّة نويناها إلّا كان لها في حياتنا أثر أو ظلّ يلازمنا في الحلّ والترحال، وفي اليقظة والمنام. وهذه الظلال لا تنفكّ تهتزّ اهتزاز الأوتار في القيثار. فآناً يغلب هذا الوتر وآونة ذلك حسبما تتّجه أصابع